

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بلغ الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل عليه ، صلاة وسلاماً دائماً إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

أما بعد :

فلقد خص الله المسلمين بأنهم شهداء على الناس بقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وقوله : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ [الحج : ٧٨] .

ومن هنا كان التكليف من الله عز وجل لهم بالقيام بواجب دعوة الناس إلى الخير ونصحهم وإرشادهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، ووصفوا بالخيرية للقيام بهذا الواجب في قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وعليه ، فلا يصح للمسلمين أن يتوانوا في أداء واجبهم نحو الناس من

الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإلا تحولت الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد ، مصداقاً لقول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، وقوله : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج : ٤٠] .

ولما كان هذا الموضوع بهذه الأهمية ، فقد وقع اختيارنا لهذه الرسالة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » لشيخ الإسلام ابن تيمية - الذي كانت حياته كلها أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وصدعاً بالحق ، وبخاصة في وجه الحكام الظالمين أو الطوائف المنحرفة عن الدين - حيث يكون لنا شرف الاعتناء بها ^(١) وتقديمها للقراء في أبهى حلة ، وأصح عبارة ، بأن نقوم على ضبط نصوصها ، وتخراج أحاديثها ، وبعض التعليقات المهمة ، وإتماماً للفائدة فقد قدمنا بين يدي الرسالة هاتين النقطتين :

الأولى : ترجمة لشيخ الإسلام ابن تيمية .

الثانية : جوانب مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والله نسأل أن يتقبل عملنا هذا ، وأن يجعله خالصاً لوجهه ، وأن يعفو عن كل تقصير أو خطأ لا يخلو منه بشر ، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد ، والحمد لله رب العالمين .

أنور الباز

(١) سبق وأن قمنا بذلك أيضاً ضمن تحقيقنا لمجموعة فتاوى ابن تيمية ، إلا أنه هنا أضفنا تعليقات اقتضاها نشرها بمفردها ، إذ معظم التعليقات يمكن لمقتني مجموعة الفتاوى الاطلاع عليها ، حيث هي متناثرة في أجزاء المجموعة . أما هنا فتيسيراً على القارئ فقد وضعنا له التعليقات التي تغنيه عن البحث والعناء من المجموعة أو غيرها .

ترجمة
شيخ الإسلام ابن تيمية

obeikandi.com

ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية (١)

نسبه ومولده :

هو الشيخ الإمام العلامة الفقيه المفسر الحافظ المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، تقى الدين أبو العباس أحمد ابن العالم المفتى شهاب الدين عبد الحلیم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله ابن أبي القاسم بن محمد بن الخضر بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي.

وقيل في سبب تسميته بابن تيمية: إن جده محمد بن الخضر حجّ وكانت امرأته حاملاً، فلما كان بتيماء قرب تبوك، رأى جارية حسناء الوجه وقد خرجت من خباء، فلما رجع وجد امرأته قد وضعت جارية، فلما رفعوها إليه قال: يا تيمية، يا تيمية - أي أنها تشبه الجارية التي رآها بتيماء - فسمى بها، فنسب إليها وعُرف بها.

وكان مولده في العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١ هجرية بحرّان، وهي بلدة في الجزيرة بين العراق والشام.

وقد مات والده وهو في مقتبل العمر، إذ مات سنة ٨٨٢ هجرية وابن تيمية في الحادية والعشرين، وأما أمه فلم يذكر المؤرخون عنها شيئاً غير أنها عاشت حتى رأت مجد ابنها يكتمل، وعاونته في جهاده ببرها وحدها وعطفها.

(١) تراجع ترجمته - على سبيل المثال - في:

فوات الوفيات للكتبي (٧٤/١ - ٧٨)، والوفاء بالوفيات للصفدي (٧ / ١١ - ٢١)، وتاريخ ابن الوردي (٤٠٦/٢ - ٤١٢)، والبدایة والنهاية لابن كثير (٢٩٥/١٤ - ٣٠٢)، والدرر الكامنة لابن حجر (١ / ١٤٤ - ١٦٠)، والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن الأتابكي (٢٧١/٩، ٢٧٢)، وطبقات المفسرين للدودي (١ / ٤٥ - ٤٩)، والأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبيزار (ص ١٨ - ٨٩)، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٨١/٦ - ٨٦)، والبدر الطالع للشوكاني (٦٣/١ - ٧٢)، وتاريخ المذاهب الإسلامية لمحمد أبي زهرة (ص ٥٥٨ - ٦٠٢).

نشأته وطلبه للعلم :

نشأ ابن تيمية وتربى في بيت علم وفقه، وفي بيئة تتجه به إلى العلم وتحذوه إليه، وقد وجهته الأسرة إلى ذلك فحفظ القرآن وختمه صغيراً، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى برع في ذلك، مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث والآثار. وانهر بذكائه أهل دمشق لقوة حافظته وسرعة إدراكه، فقد قيل: إنه ما من كتاب في فن من فنون العلم إلا وقف عليه، وما استمع لشيء - غالباً - إلا ويبقى على خاطره إما بلفظه أو معناه.

قال الذهبي: «كان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف، وصارت بتصانيفه الركبان».

وقال عنه أيضاً: «أحمد بن عبد الحليم أبو العباس تقي الدين شيخنا وشيخ الإسلام، فريد العصر علماً ومعرفة، وشجاعة وذكاء، وتنويراً إلهياً، وكرماً ونصحاً للأمة، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر».

سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب وخرج، ونظر في الرجال والطبقات، وحصل ما لم يحصله غيره، برع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال، وخاطر إلى مواقع الإشكال ميال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها، وبرع في الحديث وحفظه، فقلّ من يحفظ ما يحفظه من الحديث، معزواً إلى أصوله وصحابه، مع شدة استحضاره له وقت إقامة الدليل.

وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين، بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم مذهبا، بل يقوم بما دليله عنده.

وأتقن العربية أصولاً وفروعاً، ونظر في العقلية، وعرف أقوال المتكلمين وردّ عليهم، ونبه إلى خطئهم وحذر منهم».

وقال الحافظ ابن كثير: «قرأ بنفسه الكثير، وطلب الحديث، وكتب الطباق والأثبات، ولازم السماع بنفسه مدة سنين، ثم اشتغل بالعلوم، وكان ذكيا كثير المحفوظ، فصار إماما في التفسير وما يتعلق به، عارفا بالفقه واختلاف العلماء، والأصليين والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وما تكلم معه فاضل في فن من الفنون العلمية إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفا به متقنا له، وأما الحديث فكان حافظا له متنا وإسنادا، مميزا بين صحيحه وسقيميه، عارفا برجاله متضلعا من ذلك، وله تصانيف كثيرة وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع، كمل منها جملة وبيضت وكتبت عنه، وجملة كبيرة لم يكملها، وجملة كملها ولكن لم تبيض.

وأثنى عليه وعلى فضائله جماعة من علماء عصره، مثل القاضي الخوي، وابن دقيق العيد، وابن النحاس، وابن الزملكاني وغيرهم.

ووجدت بخط ابن الزملكاني أنه اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب، والتقسيم والتبيين».

وقال ابن حجر: «سمع سنن أبي داود، وحصل الأجزاء، ونظر في الرجال والعلل، وتفقه، وتمهد، وتميز، وتقدم، وصنف، ودرس وأفتى، وفاق الأقران، وصار عجبا في سرعة الاستحضار، وقوة الجنان، والتوسع في المنقول والمعقول، والاطلاع على مذهب السلف والخلف».

وقال الحافظ البزار: «أما غزارة علومه، فمنها: ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد، واستنباطه لدقائقه ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاده بدلائله، وما أودعه الله تعالى فيه من عجائبه، وفنون حكمه وغرائب نوادره، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحظته؛ فإنه فيه الغاية التي ينتهي إليها، والنهاية التي يعول عليها.

ولقد كان إذا قُرئ في مجالسه آيات من القرآن يشرع في تفسيرها، فينقضي المجلس بجملته، والدرس برمته، وهو في تفسير بعض آية منها.

وكان مجلسه مُقدِّراً بقدر ربيع النهار، يفعل ذلك بديهية من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئاً معيناً بيته؛ ليستعد لتفسيره.

بل كان كل من حضر يقرأ ما تيسر له، ويأخذ هو في القول على تفسيره. وكان غالباً لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضي الزمن المعتاد لأورد أشياء أخرى في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظراً في مصالح الحاضرين.

ولقد أُملى في تفسير: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مجلداً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] نحو خمس وثلاثين كراساً.

وقال أيضاً: «وأما معرفته وبصره بسنة رسول الله ﷺ وأقواله، وأفعاله، وقضاياه، ووقائعه، وغزواته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه، وبقيه المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم في أقوالهم، وأفعالهم، وفتاويهم، وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خصوا به من بين الأمة فإنه كان رضي الله عنه من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضاراً لما يريد منه؛ فإنه قل أن ذكر حديثاً في مصنف أو فتوى، أو استشهد به، أو استدلل به إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح، أو الحسن، أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة».

وقال ابن دقيق العيد: «لما اجتمعت بآبن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد».

وقال ابن رجب: «عنى بالحدِيث وسمع المسند مرات، والكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير وما لا يحصى من الكتب والأجزاء، وقرأ بنفسه، وكتب بخطه جملة من الأجزاء».

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ————— ١٣

وقال العلامة العيني : « كان من العلم والدين والورع على جانب عظيم ، وكان ذا فنون كثيرة ولا سيما علم الحديث والفقه ، والتفسير ، وغير ذلك » .
شيوخه :

وكان فى مقدمة شيوخه والده وجدّه رحمهما الله ، ثم أخذ عن كثير غيرهما ، ومن أبرزهم :

- ١- أحمد بن عبد الدايم بن نعمة المقدسى ، توفى سنة ٦٨٢ هـ .
 - ٢- عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسى ، توفى سنة ٦٨٢ هـ .
 - ٣- أحمد بن أحمد بن نعمة المقدسى ، توفى سنة ٦٩٤ هـ .
 - ٤- المنجى بن عثمان بن أسعد بن المنجى بن بركات بن المؤمل التنوخى ، توفى سنة ٦٩٥ هـ .
 - ٥- محمد بن عبد القوى بن بدران بن عبد الله المقدسى المرداوى ، توفى سنة ٦٩٦ هـ .
- تلامذته :

لقد تأهل ابن تيمية - رحمه الله - للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة ، ثم جلس منذ أن بلغ إحدى وعشرين سنة للتدريس والفتوى إلى أن توفاه الله عز وجل ، أى أنه درس ما يزيد على خمس وأربعين سنة ، حيث كانت وفاته سنة ٧٢٨ هـ . لذا فقد أخذ عنه خلق كثير ، من أشهرهم :

- ١- الحافظ أبو الحجاج يوسف المزى ، صاحب تحفة الأشراف ، توفى سنة ٧٤٢ هـ .

- ٢- الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادى بن قدامة المقدسى ، صاحب العقود الدرية فى مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، توفى سنة ٧٤٤ هـ .

٣- محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعَى الدمشقى، المشهور بابن قيم الجوزية، ومن أخص تلاميذه وألزمهم له، توفى سنة ٧٥١ هـ.

٤- الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، توفى سنة ٧٤٨ هـ.

٥- أبو عبد الله محمد بن مفلح الحنبلى، صاحب الآداب الشرعية، توفى سنة ٧٦٣ هـ.

٦- أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسى، صاحب المغنى، توفى سنة ٧٧١ هـ.

٧- الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير، صاحب التفسير، والبداية والنهاية، توفى سنة ٧٧٤ هـ.

مؤلفاته :

يقول الحافظ الذهبى : «وأما تصانيفه - رحمه الله - فهى أشهر من أن تذكر، وأعرف من أن تنكر، سارت مسير الشمس فى الأقطار، وامتألت بها البلاد والأمصار، قد جاوزت حد الكثرة، فلا يمكن أحد حصرها، ولا يتسع هذا الكلام لعد المعروف منها ولا ذكرها، وقد بلغت ثلاثمائة مجلدة.

وكتب بخطه من التصانيف والتعليق المفيدة، والفتاوى المشبعة فى الأفرع والأصول والحديث ورد البدع بالكتاب والسنة شيئا كثيرا، يبلغ عدة أحمال.

وقال البزار : « وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرنى جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالبا أحد؛ لأنها كثيرة جدا، كبارا وصغارا، وهى منشورة فى البلدان، فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه ».

وفيما يلي ذكر لأهم مؤلفاته :

- ١- مجموعة الفتاوى .
- ٢- درء تعارض العقل والنقل .
- ٣- منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية .
- ٤- الفتاوى الكبرى .
- ٥- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .
- ٦- شرح العمدة .
- ٧- الصارم المسلول على شاتم الرسول .
- ٨- بيان تلبيس الجهمية فى تأسيس بدعهم الكلامية .
- ٩- الاستقامة .
- ١٠- تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكرى .
- ١١- تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء .
- ١٢- الرد على المنطقيين .
- ١٣- النبوات .
- ١٤- نقض المنطق .
- ١٥- بغية المرتاد فى الرد على الفلاسفة والقرامطة .
- ١٦- نقد مراتب الإجماع لابن حزم .
- ١٧- شرح العقيدة الأصفهانية .
- ١٨- بيان الدليل على بطلان التحليل .

١٩- المسائل الماردينية فى فقه الكتاب والسنة ورفع الحرج عن الأمة.

٢٠- السياسة الشرعية.

٢١- رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

٢٢- القواعد النورانية الفقهية.

٢٣- التوسل والوسيلة.

٢٤- الوساطة بين الحق والخلق.

من صفاته :

لقد اختص الله سبحانه ابن تيمية بصفات فاق بها أقرانه، وكونت ذلك العالم الجليل، بسبب ما تهيأ له من جو وتربة صالحة، ونحن نذكرها فيما يلى :

١- حافظة واعية : وهى أساس العلم ، وبمقدارها ومقدار القدرة على استخدامها يكون قدره وسط العلماء، وقد بدت هذه الظاهرة فى صدر حياته، واستمرت ملازمة له حتى وفاته.

٢- العمق فى التفكير : فقد كان رحمته الله يدرس المسائل متعمقاً، وكان يدرس الآيات والأحاديث وقضايا العقل ويوازن ويقايس بفكر مستقيم، حتى ينبثق له الحق واضحاً، فلم يكن حافظاً واعياً فقط، بل كان مدرّكاً متأملاً مستنبطاً فاحصاً، يردد البصر ويسبر غور المسائل، حتى يصل فيها إلى النتائج محققة، وما يصل إليه تدهش له العقول، ويحير الخصوم.

٣- حضور البديهة : فقد كان مع قوة حافظته وتعمقه فى الدراسة حاضر البديهة تخرج إليه المعانى من مكانها سريعة كالجندى السريع يجيب أول نداء، وكان ذلك يبدو فى دروسه، فأرسال المعانى تجيء إليه من غير إجهاد وعند المناظرة يفهم الخصوم بكثرة ما يحفظ، وبحضور ما يحفظ ولهذا الصفة كان

خصوم ابن تيمية يهابون لقاءه، ومن لا يعرفها فيه ويغتر بحجته إذا لقيه يكون عبرة المعتبرين.

٤- الاستقلال الفكري : ولعل هذه الصفة أبرز الصفات في تكون علمه وشخصيته العلمية التي جعلت له مزايا خاصة ليست في غيره من العلماء الذين عاصروه، ولقد قال في استقلاله الفكري أحد تلاميذه:

« كان إذا وضع له الحق عض عليه بالنواجذ، والله ما رأيت أحدا أشد تعظيما لرسول الله ﷺ، ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه، حتى إذا أورد شيئا من حديثه في مسألة، ويرى أنه ينسخه شيء غيره من حديث، يعمل ويقضى ويفتى بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائنا من كان لا يخاف في ذلك أميرا ولا سلطانا ولا سيفا، ولا يرجع عن الكتاب والسنة لقول أحد وهو متمسك بالعروة الوثقى».

٥- الإخلاص في طلب الحق : والإخلاص يقذف في قلب المؤمن بنور الحقيقة، ويجعله يدرك الأمور إدراكا مستقيما.

وقد تجلّى إخلاص ابن تيمية في أمور أربعة :

أولها : أنه كان يجابه العلماء بما يوحيه إليه فكره، لا يهمله إلا رضا الله سبحانه ورضا الحق، غضب الناس أو سخطوا.

والأمر الثاني - الذي أظهر إخلاصه : تفانيه في الحق، وجهاده في سبيله، وقد تحمل في هذا السبيل البلاء الشديد، والسجن المستمر من أعدائه وأصدقائه على سواء.

والأمر الثالث - الذي أظهر إخلاصه وبعده وتنزهه عن الأغراض والأهواء هو: عفوه عمن يسيء إليه، عفا عن العلماء الذين سجنوه، وقد تمكن من رقابهم، وأخيرا عفا عمن ضيقوا عليه في آخر حياته حتى مات في محبسه.

والأمر الرابع - الذى بدا فيه إخلاصه : زهده عن المناصب، وكل زخرف الدنيا وزينتها فلم يتول منصباً، ولم ينازع أحداً فى رئاسة، بل رضى أن يكون المدرس الواعظ الباحث، فلم يهتم برياسة يتنافس فيها المتنافسون، ولذا كان متصلاً بالله ولا يرجو النجاة إلا من الله تعالى وقد نجاه، وقد قال الذهبى فى ذلك :

« وكم من نوبة قد رموه فيها عن قوس واحدة فينجيه الله تعالى، فإنه دائم الابتهال كثير الاستغاثة قوى التوكل ثابت الجأش له أورد وأذكى يديهما ».

٦- فصاحته، وقدرته البيانية : فقد كان - رحمه الله - خطيباً وكاتباً جمع الله سبحانه وتعالى له بين فصاحة اللسان والقلم، ويظهر أن هذه الموهبة وراثية فى أسرته، فقد كان أبوه متكلماً مجيداً، وقد قوى تلك الملكة البيانية، كثرة قراءته للقرآن، وترديده للسنن النبوية وحفظه لها، فإن الكتاب والسنة أمداه بطائفة كبيرة من الألفاظ الجيدة المتقاة، وفوق ذلك فإن كثرة المعارك البيانية أرهفت قواه وعودته القول الارتجالي.

٧- الشجاعة : ومعها صفتان أخريان، وهما : الصبر وقوة الاحتمال، فقد اتصف بالشجاعة فى ميدان الحرب، وإدارة شؤون الدولة والقضاء على الفساد فى مدة الفوضى التى أوجدها غزو التتار لمدينة دمشق الفيحاء، وبدت شجاعته الأدبية طول حياته، فتجرد للمخالفين، واتجه إلى السنة وأعلنها ولو خالفت كل مألوف عند الناس، وكانت هى سبب بلائه، فلما نزل البلاء بدت فيه الصفتان الصبر وقوة الاحتمال.

أما الصبر فقد كان الصبر الجميل الذى لا يتبرم فيه ولا يتململ، وأما قوة الاحتمال فقد بدت فى احتفاظه بكل مواهبه لعمل، انقطع عن الناس نحو ستين لم يلبس ولم يضعف، ولم يحس بإرهاق، بل أحس بوجوب العمل فلم ينقطع.

وعن شجاعته يقول ابن القيم : « وعلم الله ما رأيت أحداً أطيّب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس، والتهديد، والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيّب الناس عيشاً، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضائق منا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا، وقوة، ويقينًا، وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها، ونسيمها، وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها.

ويقول البزار في ذلك : « كان عليه السلام من أشجع الناس ، وأقواهم قلبا ، ما رأيت أحدا أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناء في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم ».

٨ - حسن عبادته وصلته بالله عزوجل : ولقد كان ابن تيمية - رحمه الله - في محبته للطاعة وانشغاله بربه - عزوجل - متفردا عن كل الناس، فلم يشغله أهل ولا مال ولا أى شىء عن الله - عزوجل .

فهو في عبادته وكثرة توجهه واستعانتة بالله - عزوجل - لم يُر مثله، وقد كان معظما للشرائع ظاهرا وباطنا، يقول تلميذه ابن القيم :

« حضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله - تعالى - إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلى وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد سقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا. وقال لى مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسى وإراحتها؛ لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه.

وقال البزار: « أما عن تعبدہ ﷺ فإنه قلّ أن سُمِعَ بمثله؛ لأنه قد قطع جل وقته وزمانه فيه، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله - تعالى - ما يراد له لا من أهل، ولا من مال.

وكان في ليله متفردًا عن الناس كلهم، خاليًا بربه - عز وجل - ضارعًا، مواظبًا على تلاوة القرآن العظيم، مكرّرًا لأنواع التعبّدات الليلية والنهارية. وكان إذا ذهب الليل، وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم.

وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه، حتى تميله يمنة ويسرة ».

٩- حسن أخلاقه: وعن حسن خلقه وإحسانه إلى من أساء إليه يقول ابن القيم: « ما رأيت أحدًا أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام - قدس الله روحه. وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئت يومًا مبشّرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدّهم عداوةً وأذىً له، فنهرني، وتنكر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله، فعزاهم، وقال: إنني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجونه فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا الكلام، فسروا به، ودعوا له، وعظّموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضى عنه ».

وفي جواب ابن تيمية رحمه الله عن ورقة أرسلت إليه وهو في السجن في رمضان سنة ٧٠٦ هـ ما يدل على سمو خلقه وسماحته وعفوه عمن أساء إليه، حيث يقول: « فأنا على أي شيء أخاف، إن قتلت كنت من أفضل الشهداء، وكان على الرحمة والرضوان إلى يوم القيامة، وكان على من قتلني اللعنة الدائمة في الدنيا، والعذاب في الآخرة، ليعلم كل من يؤمن بالله ورسوله أني إن قتلت

فلأجل دين الله، وإن حبُست فالحبس في حقى من أعظم نعم الله على، والله ما أطيع أن أشكر نعمة الله على فى هذا الحبس، وليس لى ما أخاف الناس عليه، لا إقطاعى ولا مدرستى، ولا مالى، ولا رياستى وجاهى. وإنما الخوف عليكم إذا ذهب ما أنتم فيه من الرياسة والمال، وفسد دينكم الذى تنالون به سعادة الدنيا والآخرة، وهذا كان مقصود العدو الذى أثار هذه الفتنة.

مع أنى فى عمرى إلى ساعتى هذه لم أدع أحدا قط فى أصول الدين إلى مذهب حنبلى وغير حنبلى، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره فى كلامى، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وقد قلت لهم غير مرة : أنا أمهل من يخالفنى ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلته فأنا أقر بذلك. وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بألفاظهم، وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف.

هذا مع أنى دائما - ومن جالسنى يعلم ذلك منى - أنى من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التى من خالفها كان كافرا تارة، وفاسقا أخرى، وعاصيا أخرى، وإنى أقر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ فى المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية.

ما ذكرتم من لين الكلام والمخاطبة بالتي هى أحسن، فأنتم تعلمون أنى من أكثر الناس استعمالا لهذا، لكن كل شىء فى مواضعه حسن، وحيث أمر الله ورسوله بالإغلاظ على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة فنحن مأمورون بمقابلته، لم نكن مأمورين أن نخاطبه بالتي هى أحسن. هذا وأنا فى سعة صدر لمن يخالفنى، فإنه وإن تعدى حدود الله فى بتكفير، أو تفسيق، أو افتراء، أو عصية، أو جاهلية فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤثما بالكتاب الذى أنزله الله، وجعله هدى للناس،

حاكما فيما اختلفوا فيه. فأنا أحق من سمع الحق والتزمته وقبله، سواء كان حلوا أو مرا، وأنا أحق أن يتوب من ذنوبه التي صدرت منه، بل وأحق بالعقوبة إذا كنت أضل المسلمين عن دينهم».

١٠- تواضعه : وكان آية في ذلك، يقول البزار: « فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك؛ كان يتواضع للكبير، والصغير، والجليل، والحقير، والغنى الصالح، والفقير.

وكان يدنى الفقير الصالح، ويكرمه، ويؤنسه، ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه، وأعاناه بحمل حاجته؛ جبراً لقلبه، وتقرباً بذلك إلى ربه.

وكان لا يسأم ممن يستفتيه، أو يسأله، بل يقبل عليه ببشاشة وجه، ولين عريكة، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً أو صغيراً، رجلاً أو امرأة، حراً أو عبداً، عالماً أو عامياً، حاضراً أو بادياً.

ولا يجبهه، ولا يخرجه، ولا ينفره بكلام يوحشه، بل يجيبه، ويفهمه، ويعرفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط».

١١- كرمه : ولقد ضرب ابن تيمية - رحمه الله - في صفة الكرم أعظم الأمثلة، وكان مجبولا عليه، بلا تصنع، بل هو سجية، يقول البزار: « كان مجبولا على الكرم، لا يتطبعه ولا يتصنعه؛ بل هو له سجية وقد ذكرت فيما تقدم أنه ما شد على دينار ولا درهم قط، بل كان مهما قدر على شيء من ذلك يجود به كله.

وكان لا يرد من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنائير، ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك، بل ربما كان يسأله بعض الفقراء شيئاً من النفقة، فإن كان حينئذ متعذراً لا يدعه يذهب بلا شيء، بل كان يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إليه، وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله».

وفاته :

وكانت وفاته - رحمه الله - ليلة الاثنين ٢٠ من ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ ، بعد حبسه فى قلعة دمشق لمدة سنتين وأشهر قبيل وفاته ، وذلك بسبب بعض فتاويه التى لم تعجب بعض علماء السوء آنذاك والتى كان آخرها بمنع شد الرحال إلى القبور !

وقد كانت جنازة الشيخ مثلاً واضحاً لقول أحمد بن حنبل : « قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم شهود الجنائز » ، حيث حضرها وشهدها من الخلائق ما لا يحصره عد ، يقول ابن البزرائى : « لقد اجتمع أهل دمشق لجنازة الشيخ اجتماعاً لو جمعهم سلطان قاهر وديوان حاضر لما بلغوا هذه الكثرة التى اجتمعوها فى جنازته ، وانتبهوا إليها » .

فرحمه الله ورضى عنه وجعله فى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .